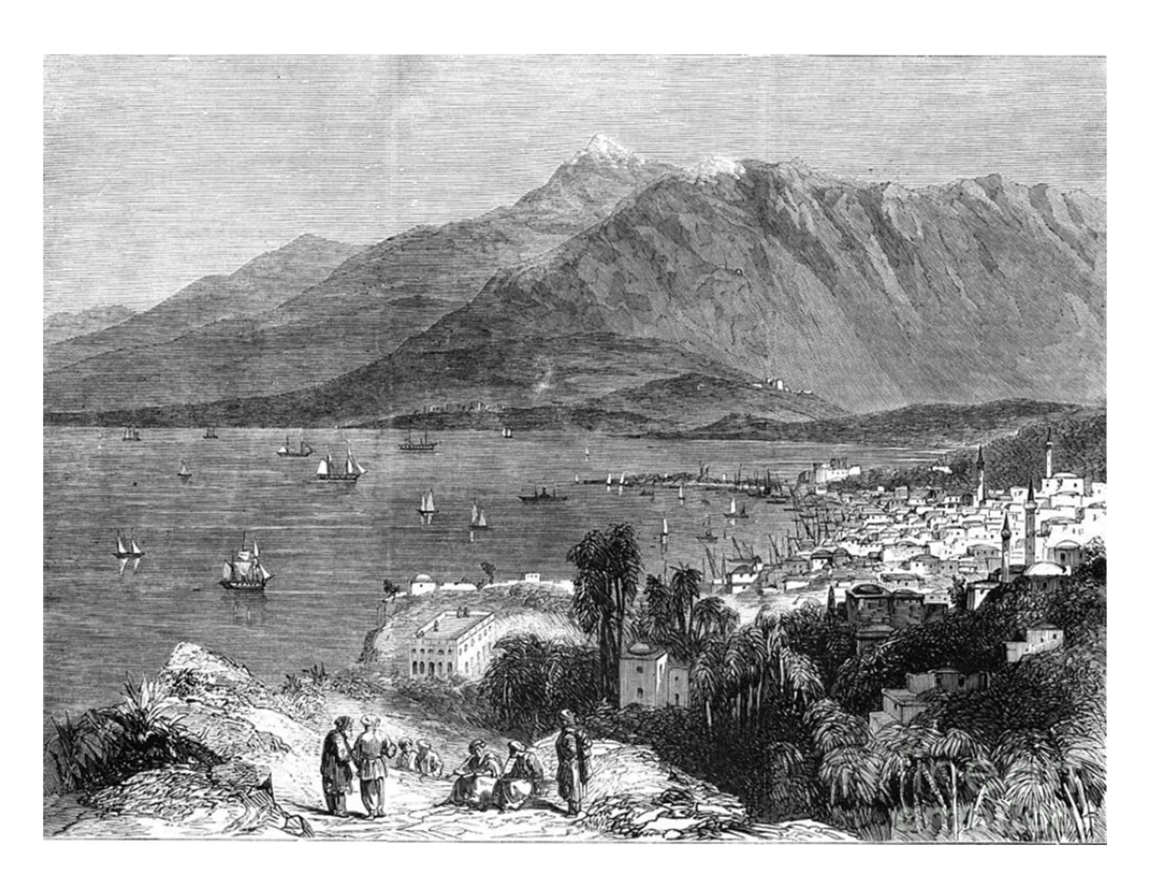
بيـروت الحـاضنة

سهيل منيمنة*



بيروت عام 1860. لوحة حفر عن رسم للبريطاني لويس فارلي

أثناء مطالعتي لما أعدّه الدكتور نادر سراج في كتاب " تراث بيروت في الحفظ والصون" الذي ضم أعمال ندوة أقيمت في فندق بريستول في بيروت يوم 20 آذار/ مارس 2009 استوقفني ما تفضل به الموسيقار اللبناني المبدع أحمد قعبور في مشاركة قال فيها: "عندما أقول بيروت يتبادر إلى ذهني الرحابة، المسالمة، البحر والملجأ. والملجأ ليس فقط ملجأي بمواجهة الحروب والاحتلال، إنما ملجأ كل المتعبين في الأرض والمضطهدين. وبهذا المعنى فهي مدينة حاضنة، وربما هذه أول صفة تميّز بيروت، باعتبار أنها لا يمكن أن تكون إلا حاضنة."

أجل، عندما تكون مدينة عمرها بعمر تدوين التاريخ تحظى بنعوت بهية مثل "زهرة فينيقيا" ثم "حاضرة رومانية" ثم "المستعمرة السعيدة" ثم "درة تاج عثمانية" ثم "زهرة سورية" وغير ذلك كثير، فهذا لا شك يعني أنها مدينة بلغت أرقى وأسمى درجات التميز الحضري. تاريخ بيروت يشهد بتفوقها، ومن صفحات التاريخ، وخلال وقائع قرنين من الزمن، سأستعرض هنا أهم عشرة أحداث صبغت عروس المتوسط بصبغة الحاضنة، مستعيناً بما كتبه المؤرخ الأستاذ عبد اللطيف فاخوري في مقالاته لجريدة اللواء البيروتية كمصدر رئيسي، وبما وجدته في طيات "تاريخ بيروت المطوّل" للمؤرخ الدكتور عصام شبارو وما دونه الشيخ طنوس الشدياق في "أخبار الأعيان في جبل لبنان" ومصادر أخرى.

1. في التاسع من شهر محرم سنة 1222 هـ / آذار 1807م نزلت عساكر الإنكليز في الإسكندرية وأمهلوا أهلها 24 ساعة للتسليم، فلما انقضت المهلة ضربوهم بالقنابل والمدافع فاضطروا لطلب الأمان ودخل الإنكليز المدينة. وعندما أعلم محمد علي باشا بالأمر سخط على أهل الإسكندرية وعلى شيخهم المسيري بحجة أنهم مكّنوا الإنكليز من المدينة. غادر الشيخ المسيري الإسكندرية الى طرابلس الشام فوصلها مع أكثر من ستين شخصاً من أتباعه وأقربائه كما ذكر هنري غيز قنصل فرنسا في طرابلس في أيلول 1807م وأرسل محمد علي يطلب من بربر آغا إرسال الشيخ الى القاهرة فرفض بربر آغا بحجة أن الأهالي لن تسمح له بذلك. ويبدو أن بربر آغا أوعز للشيخ المسيري بالسفر الى بيروت التي كانت في حينه قرية صغيرة بعيدة عن أعين الرقباء فانتقل الشيخ الى بيروت مع من معه وتوطن فيها فأكرمه أهلها ورحبوا بمن معه. وتصدر الشيخ المسيري للتدريس في الجامع العمري الكبير وتتلمذ على يديه الكثير من علمائها.

2. عندما وقعت الفتنة الطائفية في جبل لبنان سنوات 1840 و1860، وجد البيارتة أن إخواناً لهم اضطروا للنزوح من الجبل الى بيروت فعملوا بما يمليه عليهم الواجب الإنساني. وقد ذكر تلك المثلبة الصحافي الرائد خليل الخوري في صحيفة حديقة الأخبار سنة 1860، فقال حرفياً :

"لا يخفى أن كثيرين من فقراء النصارى في جبل لبنان قد التجأوا إلى بيروت منهزمين من نار الشرور التي ثارت في بلادهم ، فصادفوا كل مرحمة ومجابرة من أهالي المدينة ولا سيما أمة الإسلام الذين بذلوا لهم المساعدة العظيمة بإعطاء محلات للسكن وبتفريق الخبز وجمع الحسنات ، وكل ما يؤول لنفعهم مظهرين الغيرة التي هي من شعائر الإنسانية ، وبذلك تمموا إكرام الغريب ونالوا الأجر عند الله والشكر عند الناس. وهنا نثني على جناب العلامة الشيخ محمد الحوت صاحب البر والفضل الشهير الذي لا يفتر عن الإنذار بالخير والصلاح حسبما انطوت عليه سريرته السليمة من محبة العموم وحب السلام . كما أننا لا ننكر فضل العلامة الشيخ عبد الله خالد وجناب السيد عبد الله بيهم العيتاني رئيس مجلس التجارة وجناب السيد محمد البربير مع المتميزين من وجوه الإسلام الذين مارسوا أبهتهم بكل ما يوطد الألفة والمحبة بين الجميع."

3. عندما وقعت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا في شبه جزيرة القرم ثم في البلقان وإثر تقدم الروس في الروملي (الأراضي العثمانية في أوروبا) هاجر الكثير من أهالي تلك المناطق الى الأستانة فيما هاجر عدد كبير منهم الى بيروت. ففي شباط سنة 1878م حضر منهم مائة وثلاثون شخصاً بالبابور النمساوي فأنزلوا في أحد خانات محلة المرفأ ثم تبع ذلك وصول ثمانمائة منهم أنزلوا في بعض جوامع المدينة. وهرع البيارتة لجمع المساعدات المادية والعينية وكانت قد تألفت في بيروت قبل ذلك "جمعية عيال الرديف الخيرية" من السادة عبد القادر عبد الله بيهم ومحيي الدين عبد الفتاح حمادة وحسن محمد القاضي وعمر درويش الغزاوي وزين إبن الشيخ عبد الله سلام ، فتولت هذه الجمعية أمر مساعدة النازحين وقام محمد أياس بتوزيع كميات من الخبز وعدة أذرع من قماش الشيت والخام لكل عائلة وما يقتضي لخياطتها من مقصات وخيطانن، وكسا أرجل الجميع من الأولاد والنساء والرجال الحفاة وأحسن إليهم . كما قدم آل بيهم ثلاثين "بقجة" من ضمنها ألبسة جوخ وصوف وفرو متنوعة. وازداد ورود المهاجرين من البلغار والجركس والبشناق وكان يموت منهم يومياً نحو خمسة أشخاص بسبب ما تعرضوا له اثناء الطريق. وفي آذار 1878 م شبّت النار في عرض البحر ببابور نمساوي كان يقل الف وخمسمائة مهاجر من الجركس توفي منهم حوالي خمسمائة قبل رسوه في مرفا بيروت. وقد ذكر في حينه بأن عدد المهاجرين وصل في طرابلس الشام الى عشرة الآف شخص.

وبالنظر لازدياد عدد المهاجرين وسوء أوضاعهم ولا سيما بعد هطول الأمطار الغزيرة على الذين أقاموا في ساحة القشلة الهمايونية (السراي الكبيرة اليوم) عمدت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت في أيلول 1878م وكانت قد تأسست قبل ذلك بشهرين تقريباً، الى تشكيل وفد من مؤسسيها ضم السادة محمود خرما وهاشم الجمال والشيخ طه النصولي الذين قابلوا قائد الموقع العسكري وطلبوا منه إعطاء الأمر بإيواء المهاجرين في الأماكن التي لا لزوم لها. فامر مأمور ما كان يعرف « بمأمور الأبواب بأن يفتح للمهاجرين المخازن الفارغة، فاشتغل أعضاء الوفد المقاصدي بنقل المهاجرين إليها طيلة الليل. وكان الشيخ عبد الهادي النصولي قد جعل بعض بيته لضعفاء المهاجرين من النساء والأطفال.

4. في سنة 1882م إثر فشل ثورة أحمد عرابي في مصر نفي عدد كبيرمن المصريين الى بيروت منهم الشيخ محمد عبده. وقد دوّن أحدهم وهو الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي في كتابه "نفحة البشام في رحلة الشام" الحفاوة والتكريم اللذين لقيهما المصريون في بيروت. ويشار الى أن السادة تويني وسرسق كانوا قد اشتروا بالمزاد العلني سراي بيروت القديمة فقاموا باستقبال المنفيين المصريين واسكنوهم في السراي لحين تدبير أمورهم.

5. استقبلت بيروت سنة 1892م حوالي أربعماية شخص من بنغازي بليبيا هاجروا من بلادهم بسبب المجاعة وكان أكثرهم من العجزة والنساء والأطفال فتألفت لجنة من الأهالي راجعت شركة المرفأ كي تشغل لديها من يقدر على العمل. وأحضر حسن الحلبوني الدمشقي المقيم في بيروت طعاماً للمهاجرين من الأرز واللحم وتبرع بتوزيع بشلك وقطعة خام لكل منهم. ودفعت اللجنة المشار إليها أجرة إنتقال تسعين شخصاً منهم رغبوا بالتوجه الى دمشق وعهدت الى عمر الجندي بتوزيع حرامات صوف وألبسة على الباقين والنظر بأمر إسكانهم بعد أن اتخذ بعضهم المصلى الواقع أمام ضريح حمدي باشا (الباشورة) سكناً لهم. وتقرر في نظارة الداخلية، بمسعى من اللجنة البيروتية، أن يعطى مهاجرو بنغازي العاجزين عن الكسب في بيروت مساعدة نقدية بقيمة ستين بارة يومياً.

6 . في سنة 1899م وصل الى بيروت عدد من المهاجرين المغاربة انزلوا في الكرنتينا وحمل اليهم الحاج محيي الدين النصولي كمية من الزاد والثياب.

7. بين سنتي 1900 و 1911 م حصلت هجرة جزائرية باتجاه بلاد الشام كان من أسبابها قانون فصل الدين عن الدولة الذي أصدرته فرنسا سنة 1907 م وقانون التجنيد الإجباري. وقد بلغ عدد المهاجرين الجزائريين في بلاد الشام 28500 شخصاً منهم ثلاثة الآف من تلمسان وحدها. ولا تزال في بيروت من هؤلاء عائلات الجزائري والشريف والصولي والجزولي وبو عزة ونائل والهواري.

8. نزوح العائلات الفلسطينية بعد نكبة 1948 واستقبال بيروت لقسم كبير منهم وجدوا فيها موطناً ثانياً وسط أهل وأصحاب، وأصحاب الأيدي البيضاء في تقديم المعونة كثر ومعروفين.

9. حملات الإغاثة الداخلية للأشقاء في القرى الحدودية سنة 1996 وفتح البيروتيين لهم الأبواب خلال حرب تموز سنة 2006.

10. مأساة النازحين السوريين منذ العام 2011 وإلى يومنا هذا، وتنافس الجمعيات الأهلية والمؤسسات الدينية في بيروت وكل لبنان بتقديم الدعم والعون لهم بكل أشكاله.

محبّي بيروت كثير منهم أوفياء مخلصون يطيب لهم تسميتها "المحروسة" وآخرون يتغزلون بها كـ "عروس المتوسط" ولكن ما ذكرته في هذه المقالة، ولأنها حاضنة وصابرة، لا أجد لها وصفاً أكثر واقعية من "أمّ المتوسط". على كل حال، فبعد جريمة تفجير مرفأها في الرابع من آب/ أغسطس 2020 إنهال عليها "مدّعو المحبة" بالأغاني والقصائد والمقالات والمناسبات والمبادرات والندوات من كل حدبٍ وصوب في صخب شديد يرجع صداه إلى أكثرهم قائلاً:

وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى .. وليلى لا تقرُّ لهم وِصالاً

*رئيس جمعية تراثنا بيروت
SRMpharm@gmail.com